الفصل الرابع

أشهر القضاة من الصحابة والتابعين ومن جاءوا بعدهما

عمـــر بـن الخطـــــاب - رضى الله عنه -

هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب بن لؤى القرشى العدوى.

هو الناسك الذى تفجر نسكه حركة، وذكاء وعملا وبناء.

هو المعلم الذى صحح مفاهيم الحياة وأفرغ عليها نوراً من روحه، وكساها عظمة من سلوكه وكان للمتقين إماما.. !!

هو البسيط فى قوة، القوى فى عدل ورحمة.. هو الحاكم المؤمن الذى أنجبته البشرية ورباه الإسلام.

هو من وصفوه بأنه: "إذا تكلم أسمع، وإذا مشى أسرع، وإذا ضرب أوجع"..فقد ورث من طباع أبيه صرامة لاتعرف الوهن، وحسما لا يؤرجحه التردد ، وتصميما لا يقبل أنصاف الحلول.

إنه صاحبة الطبيعة الفذة التى قلما تتكرر، وقلما يكون لها فى الأعداد الهائلة من البشر نظير.

ولقد أدرك الرسول ﷺ عظمة تلك الطبيعة البشرية التى رزقها عمر.. وكان يعرف ما تنطوى عليه من أصالة واقتدار.. ولذلك كان يدعو ربه بأن ينصر الإسلام بانضمامه إليه.. ولقد ربح الإسلام بانضمام عمر ﷺ إليه، وقد قال عبد الله بن مسعود:

"مازلنا أعزة منذ أسلم عمر، كان إسلامه فتحاً، وكانت هجرته نصراً، وكانت إمارته رحمة، لقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلى بالبيت حتى أسلم عمر"..!

وقد لقبه رسول الله ﷺ بالفاروق، بعد أن فرق الله بإسلامه بين الحق والباطل، وبين الملاينة والمواجهة.

وعمر هو ثانى الخلفاء الراشدين بعد أبى بكر الصديق وهو صاحب المقولة الشهيرة:"**ماذا تقول لربك غدا إذا أتيته**" ومن هذه المقولة يتمثل دين عمر ومنهاجه، وتستمد حياته موازينها ومعاييرها. وعلى الرغم من أنه كان أقوى من

كل شهوة وزلة، حتى لأنه معصوم من الخطأ عصمة كاملة، وقد بشره رسول الله ﷺ بالجنة ومع هذا يقف بين يدى الله موقف الخشية والحذر والحياء حتى أنه حين يؤم الناس فى الصلاة كان يسمع بكاءه ونشيجه أصحاب الصف الأخير..!

هو ذلك الإنسان الخاشع الضارع الأواب الذى لا شىء يؤرقه فى نومه، ويقلقه فى صحوه مثل الخشية من أن يسأل ربه غداً فى عتاب "لماذا فعلت هذا ياعمر"؟

وحين تولى الخلافة بعد أبى بكر خطب عمر فى الناس قائلا:

"أيها الناس إنى قد وليت عليكم، ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم، وأقواكم عليكم، وأشدكم اضطلاعاً بأموركم، ما توليت ذلك منكم، ولكفى عمر انتظار الحساب"..!

وحين أصبح حاكما حرم نفسه من الطيبات المشروعة للحاكمين ومن الطيبات المشروعة للمواطن العادى.

وقد فعل ذلك بروح المسئولية التى حببت إليه أن يكون أول من يجوع إذا جاع قومه.. وآخر من يشبع إذا شبعوا، وكان يقول: "كيف يعنينى شأن الناس، إذا لم يصبنى ما يصيبهم"!!

ولقد رفض أمير المؤمنين إلحاح أصحابه وإخوانه لكى يولى ابنه "عبد الله" منصبا من مناصب الدولة.. كما رفض أن يرشحه عند موته للخلافة ضمن الستة الذين رشحهم ليختاروا من بينهم وقال:

"حسب آل عمر أن يحاسب منهم واحد، هو عمر".

وقد وضع مبدأ جليلا فقال:

"من استعمل رجلا لمودة أو قرابة، لا يحمله على استعماله إلا ذلك. فقد خان الله ورسوله والمؤمنين".

وعن **الاجتهاد والفتوى** فى عهد عمر كما روى عن شريح أنه قال: قال لى عمر بن الخطاب أن اقض بما استبان لك من قضاء رسول الله: فإن لم تعلم من أقضية رسول الله ما يساعدك فاقض بما استبان لك من أقضية أئمة المجتهدين، فإن لم تعلم فاجتهد رأيك واستشر أهل الصلاح والعلم.

ولو تتبعنا تاريخ "عمر" لعرفنا كيف كان للشورى فى عهده دور مهم وكيف

أدرك أن الحرية حق تعلنه لحظة الميلاد..وكيف أن الحرية لديه هى حرية الحق الذى فوق جميع القيود.. وكيف كان يرى أن الناس أحرار فى أن يعلنوا آراءهم ويحدثوا بما في أنفسهم، فإن أصابوا ربح الجميع وإن كان هناك خطأ تبينوه.

وأعظم مثال على عدل عمر وديمقراطيته حين طلب من العباس أن يترك داره لأنها قريبة من المسجد ليزيد مساحته بها لأنه سمع رسول الله يقول بذلك قبل وفاته وأن يعوضه بأفضل منها ولكن العباس رفض وطلب منه أن يحتكموا أمام حذيفة بن اليمان ووافق عمر ولم يستدع حذيفة بل ذهب إليه هو والعباس الذى قضى بعدم أخذ عمر لداره إلا برضاه وليس قهراً فعدل عمر عن هذا.. وحينها نظر العباس إليه وقال: ألا تزال تريد أن تغلبنى على دارى؟

قال عمر: لا ...

قال العباس: ومع ذلك فقد أعطيتك الدار تزيدها فى مسجد رسول الله!

وكان عمر عالما فقيها وقد قال عنه عبد الله بن مسعود:

"كان عمر أعلمنا بكتاب الله. وأفقهنا فى دين الله".

وكان أصحابه يتحدثون بأنه ذهب وحده بتسعة أعشار العلم.

وقد قال رسول الله ﷺ مشيداً بفطنته الخارقة: "إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه".

ولعقله المضيء وبصيرته الذكية جعله الرسول ﷺ مصدراً من مصادر التشريع حين قال لأصحابه:

" إنى لاأدرى ما مقامى فيكم، فاقتدوا باللذين من بعدى، أبى بكر وعمر".

وكانت المظاهر العابرة لا تكفى عنده لتكوين أحكام عن الآخرين. فحين سمع واحداً يطرى آخر ويمتدحه قائلا، إنه رجل صدق فيسأله عمر: هل سافرت معه يوماً..؟

يقول الرجل: لا.

– هل كانت بينكما خصومة يوماً..؟

- لا..

- هل ائتمنته يوماً على شيء..؟

- لا

فيقول عمر: "إذن لا علم لك به. لعلك رأيته يرفع رأسه في المسجد ويخفضه"..!!!

إنه عمر هذا الإمام الورع التقى لا يرى فى رفع الرأس وخفضه فى المسجد كافيا للثقة بمن يفعل هذا، لا تهوينا لشأن العبادة، ولكن إحاطة بأسرار النفس البشرية.. فهو فى معرفته بالناس. لا يكتفى بتمحيص جانب العبادة فيهم إنما يُطل على الشخصية كلها، فالعبادة عنده تعنى استواء الشخصية كلها وكانت التقوى عنده قوة وطهرا وسعة حيلة وتفوقا.

وكان يدرك "عمر" بفطنته أن الفضيلة ليست انسحابا من الحياة خوفا من الفتنة، بل هى مجابهة الحياة ومغالبة الفتنة.. وفى هذا يُسأل: أيهما أزكى وأفضل - رجل لا يأثم لأن نفسه لا تشتهى الإثم، أم رجل تشتهى نفسه الإثم ولا يأثم؟

فيجيب عمر: "الذين يشتهون المعصية، ولايعملون بها، أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، لهم مغفرة وأجر عظيم".

وكان من الممكن أن يفتى فى قضيتين متماثلتين بفتاوى مغايرة فإن سئل عن السر فى هذا يقول: "ذاك على ما قضينا، وهذا على ما نقضى".. أى أن ظروف القضيتين مختلفة وإن تماثلت الوقائع. فهو لا يضع فتاواه فى قوالب جامدة، بل كان يتعامل معها بحسب الظروف والأسباب التى تستجد أو تنقص، فمثلا نراه ينهى حكما شرعيا كان قائما فى عهد الرسول ﷺ وأبو بكر ﷺ ولايزال منطوق هذا الحكم آية تتلى فى كتاب الله.. وهذا الحكم، هو تخصيص جزء من ضريبة الزكاة للمؤلفة قلوبهم.. وهؤلاء هم من دخلوا الإسلام باقتناع ضعيف أو بغير اقتناع ، ففرض القرآن لهم فى بيت المال حظاً يأخذون منه الزكاة تألفا لهم حتى لا ينصرفوا عن الدين قبل أن يذوقوا حلاوة الإيمان فيقبلوا عليه راغبين موقنين.. وقلب عمر وجوه الرأى فى هذا الشأن ثم قال:

"لقد كان رسول الله يعطيهم، والإسلام يومئذ ضعيف.. أما اليوم فقد أعز الله

دينه وأعلى كلمته، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، ولن يتسع هـذا الديـن إلا لمن يدخله راغباً مؤمناً".

وهكذا نرى أن عمر قد طور فى هذه الواقعة التشريـع ليتناسـب مـع الوضع الجديد.

ومثال آخر يوضح إعمال العقل قبل إبداء الرأى:

حينما جيء إليه بمسلم ارتكب ما يوجب الحد، ويشهد ثلاثة شهادة تدينه، ولم يبق إلا شهادة الرابع، ثم يصير الحد عقابا محتوما.. ويرسل عمر يستدعى الشاهد..ولا يكاد يراه مقبلا حتى تأخذه رهبة.. وحين تترسخ خطاه، ينظر إليه أمير المؤمنين ويقول:

"أرى رجلا أرجو ألا يفضح الله به واحداً من المسلمين".

ويقدم الشاهد، ويقول: لم أر شيئا يوجب الحد.. ويتنفس عمر الصعداء.

ويأتيه رجلٌ يسعى ذات يوم ظانا أنه يحمل إليه بشرى. فيقول يا أمير المؤمنين، رأيت فلانا وفلانة يتعانقان وراء النخيل، فيمسك عمر بتلابيبه، ويعلوه بمخفقته، ويقول له بعد أن يوسعه ضربا:

"هلا سترت عليه، ورجوت له التوبة، فإن رسول الله قال: من ستر على أخيه ستره الله فى الدنيا والآخرة" !!

وإنه ليوصى الناس بهذا الفقه العظيم فيقول:

" هكذا فاصنعوا.. إذا رأيتم أخا لكم زل زلة فسددوه ووفقوه، وادعو الله أن يتوسع عليه، ولاتكونوا عونا عليه للشيطان"..!!

ويأتيه يوما رجل يستفتيه قائلا:

– إن ابنتى كانت قد أصابت حداً من حدود الله، وأخذت الشفرة لتذبح نفسها، فأدركناها وقد قطعت بعض أوداجها فداويناها حتى برئت، ثم تابت بعد ذلك توبة حسنة. وهى اليوم تخطب إلى قـوم. أفأخبرهـم بالذى كان..؟ فيجيبـه عمـر ذو الورع الذكى:

" أتعمد إلى ماستره الله فتبديه؟ والله لئن أخبرت بها أحداً من الناس لأجعلنك نكالاً لأهل الأمصار، اذهب وأنكحها نكاح العفيفة المسلمة".

وعلى الرغم من أنه كان شديد الوطأة، شديد البأس لكنه شديد الذكاء أيضاً ولايقضى بعواطفه بل يستعين بهذا الذكاء .. فطبيعى أنه ينفر من الإثم ولكنه يمحص ظروف اجتراحه تمحيص خبير ويضع القاعدة الذهبية التى تقول:

"لأن أعطل الحدود فى الشبهات، خير من أن أقيمها فى الشبهات"..!!

وفى إحدى الليالى وكان عاسا فى المدينة.. سمع سيدة تشكو بثها وحزنها لغياب زوجها وتبين عمر أن زوجها مجند فى أحد جيوشه وعند الصباح ذهب لابنته حفصة وسألها:

يا حفصة. كم تصبر المرأة عن زوجها؟

فتجيبه: تصبر شهراً، وشهرين، وثلاثة، وينفد مع الشهر الرابع صبرها.

فيسن من فوره قانونا، بألا يغيب فى الجهاد جندى متزوج أكثر من أربعة أشهر.. ويرسل لزوج السيدة يستدعيه من فوره..!!

ويسمع شيخاً كبيراً يبكى فى شعر جزل: ولده الوحيد الذى طال غيابه عنه.. ويسأل عمر فيعلم أنه هو الآخر فى أحد جيوش المسلمين، فيستدعيه فوراً.. ثم يسن قانونا ألا يخرج إلى الجهاد من له أبوان كبيران إلا بعد إذنهما..!!

وهكذا كان يستمد قوانينه من حاجة الناس ومن واقع الحياة.

ولقد درج العرف والقانون على اعتبار الاعتراف سيد الأدلة.. وهذا حق ولكن أمير المؤمنين يقرر بفطنته أنه ليس كذلك دائما ولابد لكى يؤخذ الاعتراف كدليل، ألا يعزل عن الظروف التى تكتنفه وتحيط به، فلربما يجىء نتيجة خوف أو إكراه، وعندئذ يفقد قيمته.. ويقول عمر:

"ليس الرجل بمأمون على نفسه إن أجعته أو أخفته، أو حبسته أن يقر على نفسه"..!

وقد كان يأمر قواد جيوشه ألا ينزلوا عقابا بجندى حتى "يطلعوا من الدرب قافلين".

فكان يرى أنه إذا ارتكب جندى خطأ ما ، فلتحقق الواقعة والمسئولية ولكن توقيع الجزاء والعقوبة، يظل مرجأ حتى يغادر الجندى البلاد ويعود لوطنه، ويعلل هذا بالخوف من أن يلحق الجندى بالأعداء ويأوى لصفوفهم لو أنزل به العقاب.

– وإنه ليجاء إليه يوما بغلمان صغار السن سرقوا ناقة رجل من مُزَينة؟ فلايكاد يراهم صفر الوجوه، ضامرى الأجسام حتى يسأل: من سيد هؤلاء..؟

قالوا: حاطب بن أبى بلتعة.

قال: إلىَّ به.

فلما جاء حاطب، سأله: أنت سيد هؤلاء..

قال: نعم يا أمير المؤمنين.

قال عمر: لقد كدت أنزل بهم العقاب، لولا ما أعلمه من أنكم تدئبونهم وتجيعونهم

– لقد جاعوا فسرقوا، ولن ينزل العقاب إلا بك!!

ثم سأل صاحب الناقة:

– يا مزنى، كم تساوى ناقتك؟

قال: أربعمائة..

قال عمر لحاطب: اذهب فأعطه ثمانمائة..!!

ثم قال للغلمان: اذهبوا، ولا تعودوا لمثلها..!!

وهكذا إذا تتبعنا ما كان يسنه عمر من قوانين وما كان يطلقه من فتاوى فلن يتسع لنا المجال لكى نرصده فى هذا المجال والأمثلة كثيرة وعديدة فهناك كتبه لقواده وتوجيهاته العسكرية وكتبه لولاته.. وقبل أن نختتم الحديث فى هذا الشأن سنأخذ مثالين يعبران عن مدى ذكائه وبساطته ودعابته.

فحين يبصر امرأة تستجيش أحزان الناس وتمسح دموعها الكواذب فيعلوها بمخفقته.. ويطردها ويقول: "إنها لا تبكى لشجونكم وإنما تبكى بدراهمكم..".

ويسأل أحد أولاد هرم بن سنان الذى خلده بشعره، زهير بن أبى سلمى، فيقول له أنشدنى بعض مدح زهير لأبيك. فينشده فيقول عمر: إنـــه كـــان ليحســـن فيكم القول..

فيجيبه الرجل: ونحن والله. إن كنا لنحسن له العطاء..

فيقول عمر: قد ذهب ما أعطيتموه.. وبقى ما أعطاكم..!!

وفى حديث لعمر أخرجه آدم بن أبى إياس فى "العلم" عن الأحوص بن حكيم ابن عمير العبسى قال: كتب عمر بن الخطاب ﷺ إلى أمراء الأجناد: "تفقهوا فى الدين، فإنه لايعذر أحد باتباع باطل وهو يرى أنه حق،ولا يترك الحق وهو يرى أنه باطل".[1]

رحم الله عمر فمن حسن حظ البشرية أنه واحد منها، لقد ألهمه الله رشده، ووقاه شر نفسه ومنحه من استقامة الشخصية وجلالها ما جعله نسيج وحده لا فى بلده فقط ولا فى عصره وإنما ملء كل زمان ومكان.

* * *

(١) كنز العمال ج ٥ ص ٢٢٨.

علـى بـن أبـى طالـب - رضى الله عنه -

هو على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم، ابن عم الرسول، زوجه رسول الله ﷺ فاطمة ابنته بأمر من السماء، وقال لها:

"أما والله زوجتك سيداً فى الدنيا والآخرة" ولما نزلت الآية: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾[آل عمران:٦١]. دعا النبى ﷺ عليا وفاطمة وابناهما الحسن والحسين وضمهم إليه وقال: "اللهم هؤلاء أهلى".

وحين آخى الرسول بين المهاجرين والأنصار اختص على – كرم الله وجهه– بأخوته.

وقد كان مضرب المثل فى البطولة والشجاعة، اختاره النبى ﷺ لينام فى فراشه فى الليلة التى عقدت قريش فيها أمرها على قتله ﷺ فاختاروا من كل قبيلة رجلا جلداً فاتكا، واجتمعوا عند بابه ليلا حتى إذا أصبح الصباح وخرج من باب الدار انقضوا عليه وضربوه بسيوفهم المشحوذة ضربة رجل واحد.

ولنا أن نتخيل كيف أمضى فتى الفتيان هذه الليلة.. فلابد أن يكون بين جوانحه قلب أسد لا يخشى البأس!

وكم كانت له من بطولات احتلت حيزاً كبيراً فى صفحات المجد والشرف ومنها مواقفه الجليلة فى يومى خيبر وأحد وغيرهما من المشاهد.

لقد كان – ﷺ وأرضاه– نموذجا فى كل صفات الخير، فى الشجاعة وفى الكرم، وفى الوفاء، وفى التواضع، وفى الزهد، وفى العلم، وفى اللين، وفى الرفق.. فى كل شىء كان على سباقا.. وكيف لا يكون كذلك وقد تربى فى بيت النبوة ونما وترعرع فى ظل معلم البشرية وهاديها سيد الأنبياء والرسل ﷺ.

وقد وصف الإمام النووى عليا – كرم الله وجهه– بقوله:

"هو أحد العشرة الذين توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راض ، وأحد الخلفاء الراشدين، وأحد السابقين إلى الإسلام ، وقد اختلف العلماء فى أول من أسلم من

الأمة، فقيل خديجة، وقيل أبو بكر وقيل على.. قال ابن المسيب: ما كان أحد يقول: سلونى غير علي. وقال عبد الله بن عباس: أعطى علىّ تسعة أعشار العلم، ووالله لقد شاركهم فى العشر الباقى"(١).

ووصفه الإمام المناوى فى طبقاته بقوله:

" هو باب مدينة العلوم والمواهب، ولىّ المتقين، وإمام العادلين. ختم الله به الخلافة كما ختم بمحمد ﷺ النبوة.. وكلامه أفرد بعدة أسفار كبار، وأما ما نقل عنه من التقلل والتزهد، وما اشتهر به من الترهب والتعبد فكثير.. وقال ﷺ: "والذى فلق الجنة، وبرأ النسمة إنه لعهد النبى الأمى ﷺ إلىّ ألاّ يحبنى إلا مؤمن، ولايبغضنى إلا منافق" (رواه مسلم).

وفى الترمذى عن أبى سعيد الخدرى قال: " كنا نعرف المنافقين ببغضهم عليّا.."(٢).

لقد التقت شخصية البطل والرجل والمسلم فى شخصية الإمام علىّ أصدق لقاء.

لم ينفصم البطل عن الرجل، عن المسلم فى حياة "على" على الإطلاق فإذا رأيناه يبارز خصما مثلا؛ فليس البطل المتمكن هو وحده الذى يبارز بل إن رجولة الرجل؛ وورع المسلم هما اللذان يرسمان للبطل أسلوب المبارزة وآدابها..!!

وحين أباح الرسول ﷺ للمسلمين أن يستعملوا رأيهم واجتهادهم الخاص إذا عرضت لهم مسألة لم يجدوا لها جوابا فى القرآن أو الحديث.. وقد أقر "على" على التشريع بالاجتهاد عندما بعثه إلى اليمن، فقد روى أنه ودعه بقوله: "اللهم اهد قلبه، وثبت لسانه". وأوصاه ألا يقضى بين خصمين حتى يسمع كلام كل منهما، وقال له: "إنك إن اجتهدت فأصبت فلك أجران وإن أخطأت فلك أجر واحد".

ومن أمثلة اجتهاد "على" ﷺ أنه أتاه باليمن ثلاثة نفر يختصمون فى غلام ، فقال كل منهم: هو لى. ولم يكن لأحد منهم دليل قوى، فأقرع "على" بينهم، وجعل

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات. (٢)الكواكب الدرية.

الولد لمن خرجت له القرعة وألزمه بأن يدفع للرجلين ثلثى الدية ، فبلغ ذلك الرسول ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه[١].

وقد تعرض الإمام "على" لمحنة كبرى بدأت بتعرضه لموقعة "الجمل" وما تحمله من معاناه نفسية ومعنوية حين خرج عليه أحب الصحابة لقلبه طلحة والزبير – رضى الله عنهما– والسيدة عائشة – رضى الله عنها– يطالبون بدم عثمان، وقد حاول الخروج إليهم فى محاولة لإخماد تلك الفتنة قبل أن يستشرى أمرها ولكنهم كانوا قد سبقوه إلى البصرة، وقامت معركة بين الفريقين أشعلها الكارهون للإسلام، وأحكموا مؤامرتهم واستمر القتال سبعة أيام وقتل يومئذ الصحابيان الجليلان كما قتل من الفريقين ما يقرب من عشرة آلاف.

وعلى الرغم مما عانى إلا أنه بعد انتهاء المعركة قام بتجهيز أم المؤمنين – السيدة عائشة– بكل ما تحتاج إليه فى رحلة العودة إلى المدينة، وشيعها بنفسه وسير معها بعض أولاده ورجاله.

وأخذت المصائب والمحن تلاحقه وخاصة بعد تعرضه لخدعة التحكيم من معاوية بن أبى سفيان على يد عمرو بن العاص ومحاولة خلعه، وأيضا حين عصاه جنوده وشيعته ومحبيه، وإعلان فريق كبير من الجيش عدته حوالى اثنى عشر ألفا التمرد ورفع راية العصيان رافضين نتيجة التحكيم وراحوا يرددون القول: لا حكم إلا لله.

وبذا ظهر الخوارج الذين شقيت بهم الأمة طويلا ولاتزال، والذين اعتقدوا أنهم وحدهم المسلمون حقاً، وأن جمهور الأمة قد ارتدوا للكفر فاستباحوا دماءهم وأموالهم.

وقد تتبعهم أمير المؤمنين "على" وبعد أن فرغ منهم وأراد السير لأهل الشام فإذا برجاله يستمهلونه بحجة الاستعداد للقتال وراحوا يتسللون من معسكره خفية، ومن بقى مع الإمام راحوا يتقاعسون عن القتال ويتدافعون بطريقة القهقرى وهو يعظهم بكل موعظة، ويستحثهم بأبلغ القول، ولكن لا حياة لمن تنادى!!

---

(١) إعلام الموقعين لابن القيم ص ٧٣.

وفى تلك الأثناء تمكن معاوية ﷺ من الاستيلاء على مصر، ومن بعدها الحجاز واليمن.

ولعل خطب "على" أبلغ دليل على ما كان يشعر به حينئذ.. ومن خطب "على" ﷺ التى تقطر مرارة وأسى بسبب خذلان شيعته وعصيانهم له فى أخريات أيامه والتى أمر أحد أصحابه بقراءتها على أهل الكوفة فى المسجد الجامع بعد صلاة الجمعة وقال فيها:

".. أما والله لوددت أن الله أخرجنى من بين أظهركم، وقبضنى إلى رحمته من بينكم.. ولوددت أنى لم أركم ولم أعرفكم، فقد والله ملأتم صدرى غيظا، وجرعتمونى الأمرين أنفاسا، وأفسدتم على رأيى بالعصيان والخذلان.. حتى قالت قريش: إن ابن أبى طالب رجل شجاع، ولكن لا علم له بالحرب، لله أبوهم!! هل كان فيهم رجل أشد لها مراسا، وأطول مقاساة منى؟؟.. لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين، وهأنذا اليوم قد عدوت الستين.. ولكن لا رأى لمن لايطاع!!"

وهكذا فالدنيا – لأولياء الله وأحبابه– تعب ونصب ، وقد قال الحبيب ﷺ : " لا راحة للمؤمن دون لقاء الله".

وكان ﷺ قد أخبر "على" بتفاصيل قتله حتى عرّفه من سيقتله وفى أى ساعة، فكان كرم الله وجهه إذا لقى عبد الرحمن بن ملجم يشير إليه قائلا لأصحابه:

– هذا قاتلى.

فإذا قالوا له:

– ألا تقتله؟

يقول لهم:

– ومن يقتلنى إذن؟

وقد تحققت نبوءة رسول الله ﷺ حين قال له يوماً:

– "يا على، من أشقى الأولين وأشقى الآخرين؟"

فقال: الله ورسوله أعلم.

قال:"أشقى الأولين عاقر الناقة، وأشقى الآخرين الذى يطعنك يا على". وأشار ﷺ إلى الموضع الذى سيطعن فيه.

وهكذا وكما رأينا تحققت النبوءة وقتل رحمه الله بسيف عبد الرحمن بن ملجم..

رحم الله الإمام "على" ﷺ فلم يبق أحد من المسلمين إلا بح صوته ترحما عليه، وقد وقف أحد كبار الصحابة وهو الصحابى الجليل "عبد الله بن عمر" يقول والدموع تبلل لحيته:

" ما أجدنى آسى على شىء فاتنى فى حياتى، إلا على أنى لم أقاتـل مع "على" الفئة الباغية".

وأحس المسلمون حينئذ بفداحة ما فعلوه وخاصة فى العراق الذين أحسوا أنهم ضالعون فى الإثم وشركاء فى الوزر، يوم تخلوا عنه وتركوه وحده فى الفضاء الموحش!! وراحوا يبكون، ويولولون..

رحم الله الإمام على رابع الخلفاء الراشدين وخاتمهم كما كان رسولنا الكريم ﷺ خاتم الأنبياء.. رحم الله إمامنا فقد كان نعم الإمام الفقيه العادل الشجاع العالم الرحيم.. والذى فى إسلامه كان نموذجا عظيما مكتمل الشكل والجوهر، فكان إسلامه عبادة ونسكا.. جهاداً وبذلا.. ترفعاً وزهداً.. فطنة وورعاً.. سيادة وتواضعا.. قوة ورحمة.. عدالة وفضلا.. استقامة وعلما.. بساطة وتمكنـا.. ولاء وفهما.

* * *

معـــاذ بـن جبـــل - رضى الله عنه -

هو رجل من الأنصار بايع الرسول يوم العقبة الثانية.. وكان لا يتخلف عن رسول الله ﷺ فى مشهد ولا فى غزاة.

كان أجل خصائصه فقهه.. فلقد بلغ من الفقه والعلم المدى الذى جعله أهلاً لأن يقول عنه الرسول ﷺ :" أعلم أمتى بالحلال والحرام، معاذ بن جبل"، وكان معاذ شبيه عمر ابن الخطاب فى استنارة عقله،وشجاعة ذكائه، وقد سأله الرسول ﷺ حين وجهه لليمن:

"كيف تقضى إذا عرض لك قضاء؟

فأجابه قائلا: "بكتاب الله"...

قال الرسول ﷺ: "فإن لم تجد فى كتاب الله"..؟!

قال معاذ: "أقضى بسنة رسوله"..

قال الرسول ﷺ: "فإن لم تجد فى سنة رسوله"..؟!

قال معاذ: "أجتهد رأيى ولا آلوا".

فتهلل وجه رسول الله وقال:"الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله".

ومن هذا الموقف يتضح لنا أن الرسول ﷺ أباح للمسلمين أن يجتهدوا أو يستعملوا رأيهم إذا عرضت لهم مسألة ولم يجدوا لها جوابا فى الكتاب أو السنة.

ولعل قدرة معاذ ﷺ على الاجتهاد وشجاعته فى استعمال ذكائه وعقله هما اللتان أصقلتا ثراءه الفقهى الذى فاق به أقرانه وإخوانه، وكان دائما يجلس والناس حوله وكان صموت لايتحدث إلا على شوق الجالسين إلى حديثه.. وإذا اختلف الجالسون فى أمر، أعادوه إليه ليفصل فيه.. فإذا تكلم، كان لما وصفه أحد معاصريه:

"كأنما يخرج من فمه نوراً ولؤلؤاً".

وقد قال أبو مسلم الخولانى:

"دخلت مسجد " حمص" فإذا جماعة من الكهول يتوسطهم شاب براق الثنايا صامت لا يتكلم.. فإذا اختلف القوم فى شىء توجهوا إليه يسألونه.. فقلت لجليس لى: من هذا..؟ قال: معاذ بن جبل.. فوقع فى نفسى حبه".

وكان معاذ ﷺ سمح اليد والنفس والخلق فلا يسأل عن شىء إلا أعطاه جزلان مغتبطا.. ولقد ذهب جوده وسخاؤه بكل ماله.

وحين واتت المنية الرسول ﷺ كان معاذ باليمن كما وجهه النبى ﷺ ليعلم المسلمين ويفقههم فى الدين.

وفى خلافة أبى بكر عاد من اليمن، وحدث بينه وبين عمر بن الخطاب موقف يدل على عدل عمر وطهارة كف معاذ.

فحين علم عمر بأن معاذا قد أثرى من وجوده باليمن اقترح على الخليفة أبى بكر أن يشاطره ثروته وماله..!! ولم ينتظر عمر بل هب مسرعا لدار معاذ وعرض عليه الأمر الذى رفضه.. وتركه عمر وانصرف.

وفى الغداة، كان معاذ يطوى الأرض حثيثا شطر عمر.. ولا يكاد يلقاه.. حتى عانقه ودموعه تسبق كلماته وقال له: "رأيت الليلة فى منامى أنى أخوض حومة ماء، أخشى على نفسى الغرق، حتى جئت فخلصتنى يا عمر".

وذهبا معا لأبى بكر الذى رفض عرضهما.. وحينها نظر عمر لمعاذ وقال له: " الآن، حل وطاب".

وبالطبع ما كان أبو بكر ليترك درهما لو علم أن معاذا أخذه بغير حق..

وفى خلافة عمر ﷺ استخلفه على الشام بعد وفاة أميرها أبو عبيدة ولم يمض فى الإمارة سوى بضعة أشهر حتى لقى ربه وكـــان لا يجـــاوز الثلاثـــة والثلاثين عاماً.

وكان عمر ﷺ يقول: "لو استخلفت معاذ بن جبل، فسألنى ربى:لماذا استخلفته؟ لقلت: سمعت نبيك يقول:"إن العلماء إذا حضروا ربهم عز وجل، كـــان معـــــاذ بين أيديهم".

وهو من قال فيه عمر ﷺ وكان كثير الاستشارة له ويستعين برأيه وفقهه: "لولا معاذ بن جبل لهلك عمر".

رحم الله معاذا دائب الدعوة للعلم وإلى ذكر الله وكان دوما يقول: "تعلموا ماشئتم أن تتعلموا، فلن ينفعكم الله بالعلم حتى تعملوا".

* * *

أبـو موسـى الأشعـــرى - رضى الله عنه -

هو عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار بن حرب بن عامر بن عنز بن بكر ابن عامر بن عذر بن وائل بن ناجية بن الجماهر بن الأشعر بن أود بن زيد بن يشجب أبو موسى الأشعرى.

وأمه طيبة بنت وهب وهى امرأة من عك.

كان أبو موسى شخصية مميزة بين الشخصيات الإسلامية، فقد كان طاهر القلب، نقى الروح، عفيف النفس، حاد الذكاء، صادق القول والعمل. تغلف[١] حياته طيبة طاهرة ووداعة[٢] ظاهرة. إلا أنه سرعان ما يتحول إلى مجاهد مغوار إذا كان الأمر يتعلق بغزوة أو جهاد فى سبيل الله عز وجل.

قدم أبو موسى من بلاد اليمن إلى مكة المكرمة، حيث أقام فيها وحالف سعيد ابن العاص.

ولما بلغه أن رسول الله ﷺ يدعو إلى الإسلام، واطلع على حقيقة الدين الجديد، أعلن إسلامه أمام النبى الكريم، وبقى فترة فى مكة المكرمة يفهم أمور الدين ويتفقه فى معانيه ويحفظ الآيات القرآنية الكريمة.

ولما استقى من رحيق الإسلام غادر إلى اليمن بناء على طلب الرسول ﷺ. وهناك جعل من نفسه داعية للإسلام.

واستطاع أن يدخل عدداً كبيراً من الأشعريين فى الدين الحنيف.

ولما أصبح عدد المسلمين من الأشعريين يجاوز الخمسين رأى أبو موسى أن يتجه بهم إلى المدينة المنورة، حيث ينضم الجميع إلى إخوانهم فى الدين ويساهمون فيما يجب عليهم لمواكبة مسيرة الإسلام المباركة بقيادة محمـــد بن عبد الله ﷺ.

ولما وصل إلى المدينة المنورة على رأس الأشعريين. صادف وصوله وصول

---

(١) تغلف : تغطى .

(٢) وداعة : لطف ورقة .

من هاجروا إلى الحبشة وعلى رأسهم جعفر بن أبى طالب. فكان سرور النبى بهم جميعاً لا يوصف، وأعطاهم نصيبهم من غنائم خيبر التى كان قد فتحها فى تلك الأثناء.

امتاز أبو موسى بذكاء متوقد وذاكرة قوية. ولذا سهل عليه أن يستوعب أمور الدين بسرعة ملحوظة ويتفقه فى أحكام الآيات، حتى أصبح عالماً من علماء المسلمين.

واستطاع أبو موسى بحكم قربه من الرسول ﷺ أن يتعلم كثيراً وأن يفهم ما يتعلمه. كما نذر نفسه للجهاد فى سبيل الله عز وجل باندفاع وإخلاص وتحمل من العذاب والمشاق الشىء الكثير.

وكان فى فهم أمور الدين وشرح أحكامه يعد من الأوائل الطليعيين حتى قال فيه ابن المدائنى:

- "قضاة الأمة أربعة: عمر وعلى وأبو موسى وزيد بن ثابت".

ولقد استعمله رسول الله ﷺ لفترة من الزمن على زبيد وعدن من أراضى اليمن.

واستمر أبو موسى فى ميادين الجهاد إلى جانب الرسول ﷺ، حتى توفاه الله إليه وانتقلت روحه إلى الرفيق الأعلى.

وتابع أبو موسى مسيرة الجهاد فى عهد الخلفاء، أبى بكر وعمر وعثمان - رضى الله عنهم-. فسجل بطولات نادرة وحقق فتوحات واسعة بفضل حسن تخطيطه وجرأته وفطنته فاقترن اسمه بكل أمجاد التاريخ الإسلامى وفتوحاته.

وقد عينه عمر بن الخطاب ﷺ واليا للبصرة خلفا للمغيرة بن شعبة، فكان يفقه أهلها ويعلمهم أصول دينهم، كما أنه انصرف لإعداد الجيش وتنظيمه، وقد ساعد هذا الجيش بقيادته فى القضاء على الفرس بقيادة الهرمزان وجيشه وأسره ودخولهم لمدينة "تستر".

وفى عصر عثمان بن عفان تولى أبو موسى إمارة الكوفة واستطاع أن يدير شئونها بكل هدوء وأمان،وقد أحبه الناس والتفوا حوله يستمعون إلى علمه وفقهه.

وبعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان ﷺ، بويع الإمام على بيعة صحيحة خليفة على المسلمين.

ولكن معاوية بن أبى سفيان والى الشام أخذ يطالب بتسليم قتلة عثمان والاقتصاص منهم.

وكان هدف معاوية واضحاً وهو رغبته بالوصول إلى الخلافة بعدم اعترافه بخلافة الإمام على.

وتفاقمت الأمور بين الرجلين وأتباعهما حتى كانت هناك فتن وثورات وحروب شقت الصف الإسلامى وألحقت به ضرراً فادحاً.

وقد ظل أبو موسى على الحياد بين عمرو بن العاص ومعاوية. فلم يدخل في نزاعهما ولم يشترك فى صراعهما، بل آثر المراقبة والترقب بعد أن بذل جهوداً كبيرة لإنهاء الخلاف بدون نتيجة.

وبعد معركة صفين، اتفق المسلمون على التحكيم، بين على ومعاوية، على أن يستجيب الرجلان للقرار أياً كانت نتيجته.

ورشح أنصار الإمام على. أبا موسى الأشعرى ليمثله فى التحكيم. إلا أن الإمام علياً -كرم الله وجهه- كان يريد أن يكون ممثله عبد الله بن عباس، ولكن جماعته رفضوا وأصروا على أبى موسى وهددوا بالانسحاب من معسكره، فرضخ لرغبتهم(١).

أما معاوية بن أبى سفيان فقد مثله فى التحكيم أحد دهاة العرب المسلمين، عمرو بن العاص.

والواقع أنه كان هناك تناقض كبير بين شخصيتى أبى موسى وعمرو.

وبالرغم من كل الصفات الحميدة فى نفس أبى موسى ووداعته وطهارته . إلا أنه أظهر حكمة وذكاء نادرين أثناء تحاوره مع عمرو بن العاص.

والخدعة حصلت من عمرو فقط ، لأنه قدم أبا موسى ليتكلم قبله .... فقال

---

(١) رضخ لرغبتهم : أذعن لهم وأطاعهم.

أبو موسى الصدق فى حين أن عمرو بن العاص نقض الاتفاق وأعلن قراراً خلاف القرار المتفق عليه.

ولم يحتمل أبو موسى وقع المفاجأة على نفسه وعلى المسلمين. فوجه لعمرو ابن العاص كلمات قاسية على مسمع من كل الناس الذين فهموا الوضع وأدركوا الخدعة.

واستعر[١] القتال من جديد بين أنصار الرجلين.

ورأى أبو موسى حال المسلمين يسوء فى قتالهم وآلاف الضحايا يذهب دمها هدراً.

فانسحب إلى مكة المكرمة.. إلى البيت الحرام يمضى فيه أيامه الباقية من عمره، وهو أشد ما يكون حزناً وكآبة.

وتابع سيرته الوضاءة فى شرح الدين وتعليم المسلمين وزيادة تفقههم ومن كلماته المأثورة:

- "اتبعوا القرآن ولا تطمعوا بأن يتبعكم القرآن".

ودنا الأجل وانتقلت روحه إلى الرفيق الأعلى وكانت آخر كلماته:

- "اللهم إنك أنت السلام ومنك السلام".

رحم الله أبا موسى الأشعرى، فقد كان مناضلا صلبا، مسالما، وديعا عظيم الثقة بالناس، مخلصا متحملا للمسئوليات التى تلقى على عاتقه، وكان نعم الفقيه والداعية، وكان حافظا للقرآن ويتلوه بصوت يهز الأعماق وتقشعر له الأبدان حتى لقد قال عنه الرسول ﷺ : "لقد أوتى أبو موسى مزماراً من مزامير آل داود"!

* * *

(١) استعر : نشب بقوة وعنف .

أبـو الـدرداء - رضى الله عنه -

هو عويمر بن مالك الخزرجى.. المكنى بأبى الدرداء.. والخزرجى نسبة للخزرج وهى قبيلة يمانية الأصل ارتحلت إلى المدينة واستقرت فيها وكانت هى والأوس تكون جمهرة الأنصار.

كيفية دخوله فى الإسلام:

بينما كانت جيوش الإسلام تضرب فى مناكب الأرض.. هادرة ظافرة.. كان يقيم بالمدينة فيلسوف عجيب.. وحكيم تتفجر الحكمة من جوانبه فى كلمات تناهت نضرة وبهاء..

وكان لايفتأ يقول لمن حوله:

"ألا أخبركم بخير أعمالكم، وأزكاها عند باريكم، وأنماها فى درجاتكم، وخير من أن تغزو عدوكم، فتضربوا رقابهم ويضربوا رقابكم، وخير من الدراهم والدنانير".؟؟

وتشرئب أعناق الذين ينصتون له.. ويسارعون بسؤاله: "أى شىء هو.. يا أبا الدرداء"..؟؟

ويستأنف "أبو الدرداء" حديثه فيقول ووجهه يتألق تحت ضوء الإيمان والحكمة:

"ذكر الله.. ولذكر الله أكبر"..!!

لم يكن هذا الحكيم العجيب يبشر بفلسفة إنعزالية، ولم يكن بكلماته هذه يبشر بالسلبية، ولا بالانسحاب من تبعات الدين الجديد.. تلك التبعات التى يأخذ الجهاد مكان الصدارة منها.

أجل.. ما كان "أبو الدرداء" ذلك الرجل، وهو الذى حمل سيفه مجاهداً مع رسول الله ﷺ منذ أسلم، حتى جاء نصر الله والفتح.

ولقد كان الحكيم فى تلك الأيام العظيمة "أبو الدرداء" ﷺ إنساناً يتملكه شوق عارم إلى رؤية الحقيقة واللقاء بها.

وإذ قد آمن بالله وبرسوله إيماناً وثيقاً، وقد آمن كذلك بأن هذا الإيمان بما يمليه من واجبات وفهم، هو طريقه الأمثل والأوحد إلى الحقيقة.

وهكذا عكف على إيمانه مسلماً إليه نفسه، وعلى حياته يصوغها وفق هذا الإيمان فى عزم، ورشد، وعظمة..

أجل.. لقد انتهى جهاد "أبى الدرداء" ضد نفسه، ومع نفسه إلى تلك الذروة العالية.. إلى ذلك التفوق البعيد.. إلى ذلك التفانى الرهبانى.. الذى جعل حياته – كل حياته.. لله رب العالمين..!!

لقد التقى الإيمان والحكمة فى هذا الرجل الأواب لقاء سعيداً، أى سعيد..!!!

سئلت أمه عن أفضل ما كان يحب من عمل.. فأجابت:

"التفكر والاعتبار".

أجل .. لقد وعى تماماً قول الله فى أكثر من آية: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾[الحشر:٢].

وكان وهو يحض إخوانه على التأمل والتفكر يقول لهم:

"تفكر ساعة خير من عبادة ليلة"..

لقد استولت العبادة والتأمل ونشدان الحقيقة على كل نفسه.. وكل حياته.. ويوم اقتنع بالإسلام ديناً، وبايع الرسول ﷺ على هذا الدين الكريم، كان تاجراً ناجحاً من تجار المدينة النابهين، وكان قد قضى شطر حياته فى التجارة قبل أن يسلم، بل قبل أن يأتى الرسول والمسلمون إلى المدينة مهاجرين.

بيد أنه لم يمض على إسلامه غير وقت وجيز حتى رفض التجارة وأقبل على العبادة.

لقد كان رجلاً ينشد تخصصاً روحياً وتفوقاً يرنو إلى أقصى درجات الكمال الميسور لبنى الإنسان.

لقد أراد العبادة كمعراج يرفعه إلى عالم الخير الأسمى، ويشارف به الحق فى جلاله، والحقيقة فى مشرقها، ولو أرادها مجرد تكاليف تؤدى ، ومحظورات تترك، لاستطاع أن يجمع بينها وبين تجارته وأعماله.

ولقد كان من أصحاب رسول الله ﷺ من لم تلههم تجارتهم ولا بيعهم عن ذكر الله... بل اجتهدوا فى إنماء تجارتهم وأموالهم ليخدموا بها قضية الإسلام، ويكفوا بها حاجات المسلمين.

ولكن منهج هؤلاء الأصحاب، ليس كمنهج أبى الدرداء، كما أن منهجه ليس كمنهجهم، فكل ميسر لما خلق له..

وأبو الدرداء يحس إحساساً صادقاً أنه خلق لما نذر له حياته.. التخصص فى أن ينشد الحقيقة بممارسة أقصى حالات التبتل وفق الإيمان الذى هداه إليه ربه، ورسوله، والإسلام.. حتى وصل لحد التصوف.

ولكنه تصوف رجل توفر له من فطنة المؤمن، وقدرة الفيلسوف، وتجربة المحارب، وفقه الصحابى، ما جعل تصوفه حركة حية فى بناء الروح، لامجرد ظلال صالحة لهذا البناء..!!

رجل دفع الدنيا بكلتا راحتيه، وزادها بصدره..

رجل عكف على نفسه حتى صقلها وزكاها، وحتى صارت مرآة صافية انعكس عليها من الحكمة، والصواب، والخير، ما جعل من أبى الدرداء معلماً عظيماً وحكيماً قويماً.

سعداء، أولئك الذين يقبلون عليه، ويصغون إليه..

وسيتضح مما سيأتى فلسفته تجاه الدنيا وتجاه مباهجها وزخرفها..

إنه متأثر حتى أعماق روحه بآيات القرآن الرادعة عن: ﴿ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴾ [الهمزة:٢،٣].

ومتأثر حتى أعماق روحه بقول الرسول:"ما قل وكفى، خير مما كثر وألهى"..

ويقول عليه الصلاة والسلام:

"تفرغوا من هموم الدنيا ما استطعتم، فإنه من كانت الدنيا أكبر همه، فرق الله شمله، وجعل فقره بين عينيه، ومن كانت الآخرة أكبر همه جمع شمله، وجعل غناه فى قلبه، وكان الله إليه بكل خير أسرع".

من أجل ذلك، كان أبو الدرداء يرثى لأولئك الذين وقعوا أسرى طموح الثروة ويقول: "اللهم إنى أعوذ بك من شتات القلب..

سئل: وما شتات القلب يا أبا الدرداء..؟؟

فأجاب: أن يكون لى فى كل واد مال"...!!!

وهو يدعو الناس إلى امتلاك الدنيا بالاستغناء عنها.. فذلك هو الامتلاك الحقيقى لها.. أما الجرى وراء أطماعها التى لا تؤذن بانتهاء، فذلك شر ألوان العبودية والرق.

عندما فتحت "قبرص" وحملت غنائم الحرب إلى المدينة رأى الناس أبا الدرداء يبكى.. واقتربوا دهشين يسألونه، وتولى توجيه السؤال إليه "جبير بن نفير":

قال له: "يا أبا الدرداء، ما يبكيك فى يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله"..؟؟

فأجاب أبو الدرداء فى حكمة بالغة وفهم عميق: "ويحك يا جبير.. ما أهون الخلق على الله إذا هم تركوا أمره.. بينما هى أمة قاهرة، ظاهرة، لها الملك، تركت أمر الله ، فصارت إلى ما ترى"..!!

أجل.. وبهذا كان يعلل الانهيار السريع الذى تلحقه جيوش الإسلام بالبلاد المفتوحة.. إفلاس تلك البلاد من روحانية صادقة تعصمها، ودين صحيح يصلها بالله.

ومن هنا أيضاً، كان يخشى على المسلمين أياماً تنحل فيها عرى الإيمان، وتضعف روابطهم بالله، وبالحق، وبالصلاح، فتنتقل العارية من أيديهم، بنفس السهولة التى انتقلت بها من قبل إليهم..!!

وكما كانت الدنيا بأسرها مجرد عارية فى يقينه، كذلك كانت جسراً إلى حياة أبقى وأروع.

دخل عليه أصحابه يعودونه وهو مريض، فوجدوه نائماً على فراش من جلد.

فقالوا له: "لو شئت كان لك فراش أطيب وأنعم..".

فأجابهم وهو يشير بسبابته، وبريق عينيه صوب الأمام البعيد:

"إن دارنا هناك.. لها نجمع.. وإليها نرجع.. نظعن إليها.. ونعمل لها"..!

وهذه النظرة إلى الدنيا ليست عند أبى الدرداء وجهة نظر فحسب، بل ومنهج حياة كذلك.

خطب يزيد بن معاوية ابنة "الدرداء" فرده، ولم يقبل خطبته. ثم خطبها لأحد فقراء المسلمين وصالحيهم، فزوجها أبو الدرداء منه.

وعجب الناس لهذا التصرف، فعلمهم أبو الدرداء قائلا:

"ما ظنكم بالدرداء إذا قام على رأسها الخدم والخصيا وبهرها زخرف القصور.

"أين دينها منها يومئذ"..؟!!

هذا حكيم قويم النفس، زكى الفؤاد.. وهو يرفض من الدنيا ومن متاعهـا كل ما يشد النفس إليها، ويوله القلب بها.

وهو بهذا لا يهرب من السعادة بل يهرب إليها.

فالسعادة الحقة عنده هى أن تمتلك الدنيا، لا أن تمتلكك الدنيا.

وإنه ليقول: "ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يعظم حلمك، ويكثر علمك، وأن تبارى الناس فى عبادة الله تعالى"..

وفى خلافة عثمان ﷺ وكان معاوية أميراً على الشام نزل – أبو الدرداء- على رغبة الخليفة فى أن يلى القضاء.

وهناك فى الشام وقف بالمرصاد لجميع الذين أغرتهم مباهج الدنيا، وراح يذكر بمنهج الرسول فى حياته، وزهده،وبمنهج الرعيل الأول من الشهداء والصديقين.

وكانت الشام يومئذ حاضرة تموج بالمباهج والنعيم.

وكأن أهلها ضاقوا ذرعاً بهذا الذى ينغص عليهم بمواعظه متاعهم ودنياهم.

والعبادة عند "أبى الدرداء" ليست غروراً ولا تألياً. إنما هى التماس للخير وتعرض لرحمة الله، وضراعة دائمة تذكر الإنسان بضعفه. وبفضل ربه عليه:

إنه يقول: التمسوا الخير دهركم كله.. وتعرضوا لنفحات رحمة الله، فإن لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده.. "وسلوا الله أن يستر عوراتكم، ويؤمن روعاتكم"...

كان ذلك الحكيم مفتوح العينين دائماً على غرور العبادة، يحذر منه الناس.

ومن أقواله :

"لا تكلفوا الناس مالم يكلفوا.. ولا تحاسبوهم دون ربهم.. عليكم أنفسكم، فإن من تتبع ما يرى فى الناس يطل حزنه"..!!

ويحدثنا صاحبه "أبو قلابة" فيقول:

مر "أبو الدرداء" يوماً على رجل قد أصاب ذنباً، والناس يسبونه، فنهاهم وقال: أرأيتم لو وجدتموه فى حفرة.. ألم تكونوا مخرجيه منها..؟

قالوا: بلى..

قال: فلا تسبوه إذن، واحمدوا الله الذى عافاكم.

قالوا: أفلا تبغضه..؟

قال: إنما أبغض عمله، فإذا تركه فهو أخى"..!

وإذا كان هذا أحد وجهى العبادة عند "أبو الدرداء"، فإن وجهها الآخر هو العلم والمعرفة.

إن "أبا الدرداء" يقدس العلم تقديساً بعيداً..يقدسه كحكيم، ويقدسه كعابد، فيقول:

"لا يكون أحدكم تقياً حتى يكون عالماً..

ولن يكون بالعلم جميلاً، حتى يكون به عاملاً".

أجل.. فالعلم عنده فهم، وسلوك.. معرفة، ومنهج.. فكرة، وحياة.

ولأن تقديسه هذا تقديس رجل حكيم، نراه ينادى بأن المعلم كالمتعلم كلاهما سواء فى الفضل، والمكانة، والمثوبة.

ويرى أن عظمة الحياة منوطة بالعلم الخير قبل أى شىء سواه..

هاهو ذا يقول: "الناس ثلاثة.. عالم.. ومتعلم.. والثالث همج لاخير فيه".

هذا هو أبو الدرداء الذى كان إذا أطرى الناس تقاه، وسألوه الدعاء، أجابهم فى تواضع وثيق قائلاً: "لا أحسن السباحة... وأخاف الغرق"...!!

رحم الله أبا الدرداء الحكيم الجليل الذى تربى على يد الرسول ﷺ وتتلمذ على نهج القرآن الكريم وكان من أوائل الصحابة والمؤمنين.

* * *

عبـد الله بـن مسعـــــود - رضى الله عنه -

هو عبد الله بن مسعود الهذلى حليف بنى زهرة أسلم قديماً، وقد كان الناس يدعونه: "ابن أم عبد".

كان عبد الله بن مسعود من عامة الناس فى مكة. بل كان أجيراً عند سادات قريش يرعى غنمهم ولا يجرؤ على مجالستهم فى ناديهم.

وجاء رسول الله ﷺ برسالته السماوية المباركة إلى جميع بنى البشر. وبدأ يبشر بها فى مكة المكرمة، ويدعو للدين الجديد المنزل من الله سبحانه وتعالى بواسطة الملاك جبريل -عليه السلام-.

وكان الدين الذى ينادى به خير المرسلين وسيد الخلق محمد بن عبد الله ﷺ يدعو للمساواة بين البشر، ولإزالة الظلم عن الناس، ومنع الاضطهاد الذى يتعرض له الضعفاء.

فهو دين الإنسانية الحقة، التى تجعل الإنسان يساعد الإنسان، والغنى يسعد الفقير، والقوى يعين الضعيف. ولذلك فهو موجه للسادة، كما هو موجه للفقراء والمعدمين والصعاليك.

وسمع عبد الله بن مسعود بدعوة محمد بن عبد الله وهو غلام يافع. ولكن لم يهتم لذلك الأمر، وهو الأجير الفقير، الذى يعيش من رعى غنـــم عقبـــة بـــن أبى معيط. فالصراع بدا له بين السادة والعظام. ولا مكان له فى ذلك الصراع.. فهو بعيد عنه.

ولكنه بعد أن لمس بيديه صدق الدعوة وشاهد بعينيه كرامة الرسول ﷺ، استجاب للدعوة، وأشهر إسلامه، ووضع نفسه فى خدمة النبى الكريم الذى رحب به برضا وسرور.

ولقد اكتسب عبد الله بن مسعود من خلال ملازمته للرسول علماً وفقهاً وتقى. وقال عن نفسه فى ذلك:

- "أخذت من فم رسول الله ﷺ سبعين سورة لا ينازعنى فيها أحد".

ولم يكن عبد الله بن مسعود من أبرع من قرأ القرآن الكريم وحسب ، بل كان

أيضاً من أفقه الناس لمعانيه، وأعلمهم بآياته.. وهو أول من جهر بالقرآن بمكة.

ولقد هاجر الهجرتين جميعا إلى الحبشة وإلى المدينة وصلى إلى القبلتين وشهد بدراً وأحداً والخندق وبيعة الرضوان وسائر المشاهد مع رسول الله ﷺ وشهد اليرموك بعد النبى ﷺ.

روى عنه الحديث جمع كثير من الصحابة والتابعين.

وحياة عبد الله بن مسعود، فى دار النبى الكريم جعلت منه رجل علم وتقى وورع وازداد بفضل تلك الصلة المباركة علما وفقها فكان فقيه الأمة وعالم الدين وراوى الحديث الشريف وكان إجلاله لسيد الخلق وتوقيره له ﷺ، بلغا حداً جعلاه يرتجف من الرهبة والاحترام عند ذكر أى حديث شريف عنه، خشية تحويره.. وخاصة أن عبد الله بن مسعود لازم النبى ﷺ طيلة حياته حتى صعدت روحه إلى الرفيق الأعلى.

قيل لحذيفة حدثنا بأقرب الناس من رسول الله ﷺ هديا ودلا فنأخذ عنه ونسمع منه فقال: "كان أقرب الناس هديا ودلا سمتا برسول الله ﷺ ابن مسعود".

ولقد علم المحفوظون من أصحاب محمد ﷺ أن ابن أم عبد هو من أقربهم إلى الله زلفى، وروى عنه على ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "لو كنت مؤمراً أحداً من غير مشورة لأمرت ابن أم عبد".

ولقد عرف عمر بن الخطاب قدر عبد الله بن مسعود فعينه أمينا على بيت مال الكوفة.. وحين سيره إلى هناك هو وعمار بن ياسر كتب إلى أهلها: إنى قد بعثت عمار بن ياسر أميراً وعبد الله بن مسعود معلما ووزيراً وهما من النجباء من أصحاب رسول الله ﷺ من أهل بدر فاقتدوا بهما وأطيعوا واسمعوا قولهما وقد آثرتكم بعبد الله على نفسى.

وقد أقام عبد الله فى الكوفة يأخذ عنه أهلها حديث رسول الله ﷺ وهو معلمهم وقاضيهم.

وقد قال فيه على ﷺ: قرأ القرآن فأحل حلاله وحرم حرامه، فقيه فى الدين عالم بالسنة.

وقد تكرر ما بينه وبين عثمان فى أخريات حياته فاستقدمه إلى المدينة فقدمها وأقام بها.

وحين بدأت شمعة حياة عبد الله بن مسعود تذوب وتوشك أن تنطفئ. انصرف إلى العبادة والتأمل وهو يردد. "خير الغنى غنى النفس، وخير الزاد التقوى، وشر العمى عمى القلب، وأعظم الخطايا الكذب، وشر المكاسب الربا، وشر المأكل مال اليتيم، ومن يعف يعف الله عنه، ومن يغفر يغفر الله له".

هذا هو دستور عبد الله بن مسعود فى حياته.

فعبد الله بن مسعود لم يكن من المتمسكين بزيف الدنيا وزخرفها. فهى بنظره زائلة، بل كان ينشد رضا رب العالمين تبارك وتعالى.

ومات عبد الله بن مسعود عن بضع وستين سنة، ودفن فى البقيع، فى المدينة المنورة مقر شهداء أحد الأبرار. وصلى عليه ليلاً الصحابى الجليـــل الزبيـــر ابن العوام.

رحم الله عبد الله بن مسعود ورضى عنه فهو أول قارئ للقرآن وهو من تمنى أن يباركه الرسول بدفنه كما باركه بتعليمه وملازمته.

* * *

شريح القاضى - رضى الله عنه -

هو رجل "يمنى" الموطن، "كندى"[١] العشيرة، قضى شطراً غير يسير من حياته فى الجاهلية.

فلما أشرقت الجزيرة العربية بنور الهداية، ونفذت أشعة الإسلام إلى أرض "اليمن"، كان شريح من أوائل المؤمنين بالله ورسوله، المستجيبين لدعوة الهدى والحق.

وكان عارفو فضله ومقدرو شمائله[٢] ومزاياه، يأسون عليه أشد الأسى، ويتمنون أنه لو أتيح[٣] له أن يفد على المدينة مبكراً ليلقى رسول الله ﷺ قبل أن يلحق بالرفيق الأعلى، ولينهل من موارده[٤] الصافية المصفاة مباشرة لا بالوساطة... ولكى يحظى بشرف الصحبة بعد أن حظى بنعمة الإيمان... وبذلك يجمع الخير من أطرافه... ولكن ما قدر كان.

ولم يكن الفاروق - رضوان الله عليه- متعجلاً حين عهد بمنصب من مناصب القضاء الكبرى لرجل من التابعين، على الرغم من أن سماء الإسلام كانت يومئذ ما تزال تتألق بالنجوم الزهر[٥] من صحابة رسول الله ﷺ... فقد أثبتت الأيام صدق فراسة[٦] عمر، وصواب تدبيره.

إذ ظل شريح يقضى بين المسلمين نحواً من ستين عاماً متتابعة من غير انقطاع... وقد تعاقب على إقراره فى منصبه كل من عمر، وعثمان، وعلى، ومعاوية رضوان الله عليهم أجمعين.

كما أقره على ذلك من جاء بعد معاوية من خلفاء بنى "أمية"، حتى طلب الرجل إعفاءه من منصبه إبان[٧] ولاية الحجاج.

---

(١) كندى العشيرة: منسوب إلى كندة (بكسر الكاف وسكون النون) وهى قبيلة عربية عظيمة ظهر منها كثير من المحدثين والعلماء.

(٢) شمائله أخلاقه ومزاياه. (٣) أتيح له: قدر له. (٤) ينهل من موارده: يرتوى من ينابيعه.

(٥) النجوم الزهر: النجوم المضيئة المتلألئة. (٦) الفراسة: دقة التوقع.

(٧) إبان: حين.

وكان قد بلغ السابعة بعد المائة من حياته المديدة الرشيدة الحافلة بالمفاخر والمآثر[١].

ولقد ازدان تاريخ القضاء فى الإسلام ببدائع من مواقف شريح، وزها بروائع من انصياع[٢] خاصة المسلمين وعامتهم لشرع الله الذى يمثله شريح، ونزولهم عند أحكامه... وامتلأت بطون الكتب بطرائف هذا الرجل الفذ وأخباره، وأقواله وأفعاله.

من ذلك أن عليا بن أبى طالب - رضى الله عنه- افتقد درعاً له كانت أثيرة[٣] عنده غالية عليه... ثم ما لبث أن وجدها فى يد رجل من أهل الذمة[٤] يبيعها فى سوق "الكوفة"... فلما رآها عرفها وقال:

هذه درعى سقطت عن جمل لى فى ليلة كذا... وفى مكان كذا... فقال الذمى: بل هى درعى وفى يدى يا أمير المؤمنين.

فقال على: إنما هى درعى لم أبعها من أحد، ولم أهبها لأحد حتى تصير إليك.

فقال الذمى: بينى وبينك قاضى المسلمين..

فقال على: أنصفت، فهلم إليه[٥]... ثم إنهما ذهبا إلى شريح القاضى، فلما صارا عنده فى مجلس القضاء، قال شريح لعلى - رضى الله عنه-:

ما تقول يا أمير المؤمنين؟.

فقال: لقد وجدت درعى هذه مع هذا الرجل، وقد سقطت منى فى ليلة كذا وفى مكان كذا، وهى لم تصل إليه لا ببيع ولا هبة.

فقال شريح للذمى: وما تقول أنت أيها الرجل؟.

فقال: الدرع درعى وهى فى يدى... ولا أتهم أمير المؤمنين بالكذب... فالتفت شريح إلى على وقال:

---

(١) المآثر: الأفعال الحميدة ذوات الآثار الجليلة. (٢) الانصياع: الاتباع.
(٣) أثيرة عنده: عزيزة عليه.
(٤) أهل الذمة: من يعيشون فى ديار الإسلام من النصارى واليهود. (٥) فهلم إليه: فبادر إليه.

لاريب[١] عندى فى أنك صادق فيما تقوله يا أمير المؤمنين،وأن الدرع درعك، ولكن لابد لك من شاهدين يشهدان على صحة ما ادعيت.

فقال على: نعم... مولاى[٢] "قنبر"، وولدى الحسن يشهدان لى...

فقال شريح: ولكن شهادة الابن لأبيه لا تجوز يا أمير المؤمنين.

فقال على: يا سبحان الله!!.. رجل من أهل الجنة لا تجوز شهادته!!... أما سمعت أن رسول الله ﷺ قال: (الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة).

فقال شريح: بلى يا أمير المؤمنين... غير أنى لا أجيز شهادة الولد لوالده.

عند ذلك التفت علىٌ إلى الذمى وقال: خذها، فليس عندى شاهد غيرهما.

فقال الذمى: ولكنى أشهد بأن الدرع لك يا أمير المؤمنين... ثم أردف[٣] قائلاً: ياالله... أمير المؤمنين يقاضينى أمام قاضيه!!... وقاضيه يقضى لى عليه!!... أشهد أن الدين الذى يأمر بهذا لحق... وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله... اعلم أيها القاضى أن الدرع درع أمير المؤمنين، وأننى اتبعت الجيش وهو منطلق إلى "صفين"[٤]، فسقطت الدرع عن جمله الأورق[٥] فأخذتها.

فقال له على – رضى الله عنه–: أما وإنك قد أسلمت فإنى وهبتها لك... ووهبت لك معها هذا الفرس أيضاً.

ولم يمض على هذا الحادث زمن طويل، حتى شوهد الرجل يقاتل الخوارج[٦] تحت راية علىٌ فى يوم "النهروان"[٧]، ويمعن فى القتال حتى كتبت له الشهادة.

ومن روائع شريح أيضاً أن ابنه قال له يوماً:

يا أبت إن بينى وبين قوم خصومة، فانظر فيها... فإن كان الحق لى قاضيتهم[٨]، وإن كان لهم صالحتهم... ثم قص عليه قصته.

---

(١) لاريب: لا شك. (٢) مولاى: عبدى. (٣) أردف: أضاف.
(٤) صفين: موضع بقرب الرقة من سورية وقعت فيه وقعة كبيرة بين على ومعاوية – رضى الله عنهما–.
(٥) الأورق: الذى لونه لون الرماد.
(٦) الخوارج: كانوا من أتباع على بن أبى طالب، وخرجوا عليه لخلاف فى الآراء، وتطلق على من خرج على الخلفاء، ونحوهم.
(٧) يوم النهروان: واقعة جرت بين الإمام على – رضى الله عنه– وبين الخوارج.
(٨) قاضيتهم: رفعت أمرهم إلى القضاء.

فقال له: انطلق فقاضهم... فمضى إلى خصومه ودعاهم إلى المقاضاة، فاستجابوا له.

ولما مثلوا[١] بين يدى شريح، قضى لهم على ولده..فلما رجع شريح وابنه إلى البيت قال الولد لأبيه: فضحتنى يا أبت... والله لو لم أستشرك من قبل لما لمتك.

فقال شريح: يا بنى، والله لأنت أحب إلىَّ من ملء الأرض من أمثالهم، ولكن الله عز وجل أعز علىَّ منك... لقد خشيت أن أخبرك بأن الحق لهم، فتصالحهم صلحاً يفوت عليهم بعض حقهم، فقلت لك ما قلت.

وقد كفل ولد لشريح رجلاً فقبل كفالته، فما كان من الرجل إلا أن فر هارباً من يد القضاء.

فسجن شريح ولده بالرجل الفار..وكان ينقل له طعامه بيده كل يوم إلى السجن.

وكانت الشكوك تساور[٢] شريحاً – أحياناً– فى بعض الشهود... غير أنه لايجد سبيلاً لدفع شهادتهم، لما توافر لهم من شروط العدالة، فكان يقول لهم قبل أن يدلوا بشهادتهم:

اسمعوا منى هداكم الله.

إنما يقضى على هذا الرجل أنتم... وإنى لأتقى النار بكم، وأنتم باتقائها أولى... وإن فى وسعكم الآن أن تدعوا الشهادة وتمضوا.

فإذا أصروا على الشهادة، التفت إلى الذى يشهدون له وقال:

اعلم يا هذا أننى أقضى لك بشهادتهم... وإنى لأرى أنك ظالم... ولكني لست أقضى بالظن، وإنما أقضى بشهادة الشهود... وإن قضائى ما يحل لك شيئاً حرمه الله عليك.

وكان الشعار الذى يردده شريح فى مجالس قضائه قوله:

غداً سيعلم الظالم من الخاسر؟.

---

(١) مثلوا: يقال مثل فلان بين يدى فلان أى قام منتصباً بين يديه.

(٢) تساور شريحاً: تلم بشريح وتستولى على فكره.

إن الظالم ينتظر العقاب... وإن المظلوم ينتظر النصفة[١]... وإنى أحلف بالله، أنه ما من أحد ترك شيئاً لله عز وجل ثم أحس بفقده... ولم يكن شريح ناصحاً لله ولرسوله ولكتابه فحسب، وإنما كان ناصحاً لعامة المسلمين وخاصتهم أيضاً.

روى أحدهم قال: سمعني شريح وأنا أشتكى بعض ما غمنى لصديق، فأخذنى من يدى وانتحى[٢] بى جانباً، وقال:

يا ابن أخي... إياك والشكوى لغير الله عز وجل..فإن من تشكو إليه لايخلو أن يكون صديقاً أو عدواً...فأما الصديق فتحزنه...وأما العدو فيشمت بك... ثم قال:

انظر إلى عينى هذه – وأشار إلى إحدى عينيه– فوالله ما أبصرت بها شخصاً ولا طريقاً منذ خمس عشرة سنة.

ولكني ما أخبرت أحداً بذلك إلا أنت فى هذه الساعة... أما سمعت قول العبد الصالح[٣]:﴿ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [يوسف:٨٦].

فاجعل الله عز وجل مشكاك ومحزنك عند كل نائبة[٤] تنوبك... فإنه أكرم مسئول وأقرب مدعو.

وقد رأى ذات يوم رجلاً يسأل آخر شيئاً فقال له: يا ابن أخى من سأل إنساناً حاجة فقد عرض نفسه على الرق.

فإن قضاها له المسئول فقد استعبده بها... وإن رده عنها رجع كلاهما ذليلاً... هذا بذل البخل... وذاك بذل الرد... فإذا سألت فاسأل الله.

وإذا استعنت فاستعن بالله. واعلم أنه لا حول ولا قوة ولا عون إلا بالله.

وقد وقع "بالكوفة" طاعون فخرج صديق لشريح منها إلى "النجف"[٥] يبتغى المهرب من الوباء، فكتب إليه شريح:

أما بعد... فإن الموضع الذى تركته لا يقرب حمامك[٦]، ولا يسلب منك أيامك... وإن الموضع الذى صرت إليه فى قبضة من لا يعجزه طلب ، ولايفوته

---

(١) النصفة: الإنصاف والعدل.
(٢) انتحى بى: مال بى.
(٣) العبد الصالح: هو يعقوب أبو يوسف –عليهما السلام– .
(٤) نائبة: مصيبة.
(٥) النجف: من أعمال العراق.
(٦) حمامك: موتك ومنيتك.

هرب... وإنا وإياك لعلى بساط ملك واحد... وإن "النجف" من ذى قدرة لقريب.

وكان شريح إلى ذلك كله شاعراً قريب المأخذ حلو الأداء طريف الموضوعات.

رضى الله عن الفاروق، فقد زان مفرق[١] القضاء فى الإسلام بلؤلؤة كريمة الأعراق... صافية الجوهر... رائعة المجتلى... وحبا[٢] المسلمين مصباحاً منيراً، مازالوا حتى اليوم يستضيئون بسنا فقهه لشرع الله... ويهتدون بنور فهمه لسنة رسول الله... ويباهون به الأمم يوم القيامة.

ورحم الله شريحاً القاضى... فقد أقام العدل بين الناس ستين عاماً.

فما حاف[٣] على أحد، ولا حاد[٤] عن حق. ولا ميز بين ملك وسوقة[٥].

* * *

(١) المفرق: مفرد وجمعه مفارق... ومفارق القضاء: وجوهه الواضحة.
(٢) حبا المسلمين: منح المسلمين. (٣) حاف: جار وظلم.
(٤) حاد: مال. (٥) السوقة: عامة الناس.

إيـاس بن معاويـة المزنـى - رضى الله عنه -

ولد إياس بن معاوية بن قرة المزنى سنة ست وأربعين للهجرة فـى منطقـة "اليمامة" فى "نجد".

وانتقل مع أسرته إلى "البصرة" وفيها نشأ وتعلم...

وتردد على "دمشق" فى يفاعته[١]، وأخذ عمن أدركه من بقايا الصحابة الكرام، وجلة[٢] التابعين.

ولقد ظهرت على الغلام المزنى علائم النجابة وأمارات[٣] الذكاء منذ نعومـة أظفاره[٤]...

وجعل الناس يتناقلون أخباره ونوادره وهو مازال صبياً صغيراً...

روى عنه أنه كان يتعلم الحساب فى كتـاب[٥] لرجـل يهـودى مـن أهـل الذمة[٦]... فاجتمع عند المعلم أصحابه من اليهود، وجعلوا يتكلمون فـى أمـور الدين وهو ينصت إليهم من حيث لايدرون...

فقال المعلم لأصحابه:

ألا تعجبون للمسلمين،فهم يزعمون أنهم يأكلون فى الجنة ولايتغوطون[٧]!!

فالتفت إليه إياس وقال:

أتأذن لى يا معلم بالكلام فيما تخوضون[٨] فيه؟

فقال المعلم: نعم.

فقال الفتى: أكل ما يؤكل فى الدنيا يخرج غائطاً؟

فقال المعلم: لا.

فقال الفتى: فأين يذهب الذى لا يخرج؟

---

(١) اليفاعة: أوائل الصبا.
(٢) جلة التابعين: أكابر التابعين.
(٣) أمارات الذكاء: علامات الذكاء.
(٤) منذ نعومة أظفاره: كناية عن صغر السن.
(٥) الكتاب: مكان التعليم، وجمعه كتاتيب.
(٦) أهل الذمة: من دخل فى عهد المسلمين وحمايتهم من اليهود والنصارى وغيرهم.
(٧) لا يتغوطون: لا يقضون الحاجة ولا يتبرزون.
(٨) تخوضون فيه: تتناقشون فيه وتتبادلون الآراء.

فقال المعلم: يذهب فى غذاء الجسم.

فقال الفتى: فما وجه الاستنكار منكم إذا كان يذهب بعض ما نأكله فى الدنيا غذاء، أن يذهب كله فى الجنة فى الغذاء؟

فألوى المعلم يده وقال له: قاتلك الله من فتى.

ويتقدم الغلام فى السن سنة فسنة...

وتتقدم معه أخبار ذكائه أينما حل.

فقد روى أنه دخل "دمشق" وهو ما يزال غلاماً، فاختلف مع شيخ من أهل "دمشق" فى حق من الحقوق،ولما يئس من إقناعه بالحجة،دعاه إلى القضاء...

فلما صارا بين يدى القاضى، احتد إياس ورفع صوته على خصمه...

فقال له القاضى: اخفض صوتك يا غلام...

فإن خصمك شيخ كبير السن والقدر.

فقال إياس: ولكن الحق أكبر منه.

فغضب القاضى وقال: اسكت...

فقال الفتى: ومن ينطق بحجتى إذا سكت؟!

فازداد القاضى غضباً وقال:

ما أراك تقول منذ دخلت مجلس القضاء إلا باطلاً.

فقال إياس: لا إله إلا الله وحده لا شريك له...

أحق هذا أم باطل؟

فهدأ القاضى وقال:

حق... ورب الكعبة حق...

وأكب[1] الفتى المزنى على العلم ، ونهل[2] منه ما شاء الله أن يُنهل حتى بلغ

---

(١) أكب على العلم: عكف عليه وانقطع له.

(٢) نهل منه: شرب منه.

فيه مبلغاً جعل الشيوخ يخضعون له، ويأتمون به، ويتتلمذون على يديه، على الرغم من صغر سنه.

ففى ذات سنة، زار عبد الملك بن مروان "البصرة" قبل أن يلى الخلافة، فرأى إياساً وكان يومئذ فتى يافعاً[١] لم يطر شاربه[٢] بعد...

ورأى خلفه أربعة من القراء من ذوى اللحى فى طيالستهم[٣] الخضر، وهو يتقدمهم...

فقال عبد الملك: أف لأصحاب هذه اللحى...

أما فيهم شيخ يتقدمهم، فقدموا هذا الغلام؟!

ثم التفت إلى إياس وقال: كم سنك يا فتى؟

فقال إياس: سنى - أطال الله بقاء الأمير - كسن أسامة بن زيد حين ولاه رسول الله ﷺ جيشا فيه أبو بكر وعمر[٤].

فقال له عبد الملك: تقدم يافتى... تقدم... بارك الله فيك.

وفى ذات سنة خرج الناس يلتمسون[٥] هلال رمضان، وعلى رأسهم الصحابى الجليل أنس بن مالك الأنصارى...

وكان يومئذ شيخاً كبيراً قد قارب المائة...

فنظر الناس إلى السماء فلم يروا شيئا.

لكن أنس بن مالك جعل يحدق فى السماء ويقول:

لقد رأيت الهلال... هاهو ذا...

وجعل يشير إليه بيده... فلم يره أحد.

عند ذلك نظر إياس إلى أنس - رضى الله عنه - فإذا شعرة طويلة فى حاجبه قد انثنت حتى غدت قبالة[٦] عينه.

---

(١) فتى يافعاً: فتى فى بواكير الصبا. (٢) لم يطر شاربه: لم يظهر شعر شاربه (كناية عن حداثة السن).
(٣) الطيلسان: كساء أخضر يلبسه المشايخ، وجمعه: طيالسة.
(٤) كانت سن أسامة يومئذ دون العشرين. (٥) يلتمسون الهلال: يتحرون رؤيته.
(٦) قبالة عينه: أمام عينه.

فاستأذنه فى أدب، ومد يده إلى الشعرة فمسحها وسواها، ثم قال لـه: أتـرى الهلال الآن أيضاً يا صاحب رسول الله؟

فجعل أنس ينظر ويقول:

كلا ما أراه، كلا ما أراه.

وشاعت أخبار ذكاء إياس وذاعت، وصار الناس يأتونه من كـل صـوب[١] ويلقون بين يديه ما يعترضهم من مشكلات فى العلم والدين...

بعضهم يريد المعرفة...

وبعضهم الآخر يبتغى التعجيز والمماراة[٢] بالباطل...

من ذلك ما روى أن دهقاناً[٣] أتى مجلسه فقال:

يا أبا وائلة... ما تقول فى المسكر؟

قال: حرام.

قال: وما وجه حرمته، وهو لا يزيد عن كونه ثمراً وماء غليا على النار، وكل ذلك مباح لا شىء فيه.

فقال: أفرغت من قولك يا دهقان أم بقى لديك ما تقوله؟

فقال: بل فرغت.

فقال: لو أخذت كفا من ماء وضربتك به أكان يوجعك؟

قال: لا.

فقال: ولو أخذت كفا من تراب فضربتك به أكان يوجعك؟

قال: لا.

فقال:فلو أخذت التراب ثم طرحت عليه التبن،وصببت فوقهما الماء ثم مزجتها مزجاً، ثم جعلت الكتلة فى الشمس، حتى يبست، ثم ضربتك بها أكانت توجعك؟

---

(١) الصوب: الجهة. (٢) المماراة بالباطل: المجادلة بالباطل.

(٣) الدهقان: كلمة فارسية معناها رئيس الإقليم وغيره.

قال: نعم... وقد تقتلنى.

فقال: هكذا شأن الخمر، فهو حين جمعت أجزاؤه وخمر، حرم.

ولما ولى إياس القضاء ظهرت له فيه مواقف تدل على فرط ذكائه، وسعة حيلته، وقدرته الفذة فى الكشف عن الحقائق.

من ذلك أن رجلين تقاضياً عنده، فادعى أحدهما أنه أودع لدى صاحبه مالاً، فلما طلبه منه جحده[١].

فسأل إياس الرجل المدعى عليه عن أمر الوديعة، فأنكرها وقال:

إن كانت لصاحبى بينة[٢] فليأت بها...

وإلا فليس له علىَّ إلا اليمين.

فلما خاف إياس أن يأكل الرجل المال بيمينه، التفت إلى المودع وقال له: فى أى مكان أودعته المال؟

قال: فى مكان كذا...

فقال: وماذا يوجد فى ذلك المكان؟

فقال: شجرة كبيرة جلسنا تحتها، وتناولنا الطعام معاً فى ظلها...

ولما هممنا بالانصراف دفعت إليه المال.

فقال له إياس:

انطلق إلى المكان الذى فيه الشجرة، فلعلك إذا أتيتها ذكرتك أين وضعت مالك، ونبهتك إلى ما فعلته به...

ثم عد إلىَّ لتخبرنى بما رأيت.

فانطلق الرجل إلى المكان، وقال إياس للمدعى عليه:

اجلس إلى أن يجىء صاحبك... فجلس.

ثم التفت إياس إلى من عنده من المتقاضين، وطفق يقضى بينهم، وهو يرقب الرجل بطرف خفى...

---

(١) جحده: أنكره.

(٢) بينة: دليل وحجة.

حتى إذا رآه قد سكن واطمأن، التفت إليه وبادره[١] قائلاً:

أتقدر أن صاحبك قد بلغ الموضع الذى أودعك فيه المال؟

فقال الرجل من غير روية[٢]: كلا...

إنه بعيد من هنا.

فقال له إياس:

يا عدو الله تجحد المال، وتعرف المكان الذى أخذته فيه؟! ... والله إنك لخائن.

فبهت[٣] الرجل،وأقر بخيانته... فحبسه حتى جاء صاحبه، وأمره برد وديعته إليه.

ومن ذلك أيضاً ما روى من أن رجلين اختصما إليه فى قطيفتين[٤] مما يوضع على الرأس ويسدل على الكتفين...

إحداهما خضراء جديدة ثمينة، والأخرى حمراء بالية.

فقال المدعى: نزلت إلى الحوض لأغتسل، ووضعت قطيفتى الخضراء مع ثيابى على حافة الحوض، وجاء خصمى فوضع قطيفته الحمراء إلى جانب قطيفتى، ونزل إلى الحوض، وخرج قبلى... فلبس ثيابه وأخذ قطيفتى، فألقاها على رأسه وكتفيه ومضى بها.

فخرجت على إثره وتبعته، وطالبته بقطيفتى، فزعم أنها له...

فقال إياس للرجل المدعى عليه:

وما تقول أنت ؟!.

فقال: هى قطيفتى وفى يدى.

فقال إياس للرجل المدعى: ألك بينة؟.

فقال: كلا.

---

(١) بادره: عاجله وفاجأه.

(٢) من غير روية: من غير تفكر.

(٣) فبهت: دهش وسكت متحيراً.

(٤) القطيفة: قطعة من المخمل يلقيها المرء على نفسه.

فقال لحاجبه[١]: أحضر لى مشطاً، فأحضر له...

فمشط شعر رأس الرجلين، فخرج من رأس أحدهما زغب[٢] أحمر من نثار[٣] صوف القطيفة، وخرج من رأس الآخر زغب أخضر... فقضى بالقطيفة الحمراء لصاحب الزغب الأحمر، وبالقطيفة الخضراء لصاحب الزغب الأخضر.

ومن أخبار فطنته وذكائه أيضاً أنه كان فى "الكوفة" رجل يظهر للناس الصلاح، ويبدى لهم الورع والتقى... حتى كثر الثناء عليه، واتخذه بعض الناس أميناً لهم يأتمنونه على مالهم إذا سافروا...

ويجعلونه وصياً على أولادهم إذا أحسوا بدنو الأجل.

فأتاه رجل واستودعه مالاً، ولما احتاج الرجل إلى ماله طلبه منه فأنكره.

فمضى إلى إياس وشكا له الرجل، فقال للمشتكى:

أعلم صاحبك أنك تريد أن تأتينى؟

قال: كلا.

فقال له: انصرف وعد إلىَّ غداً...

ثم أرسل إياس إلى الرجل المؤتمن، وقال له:

لقد اجتمع لدى مال كثير لأيتام لا كافل لهم، وقد رأيت أن أودعه لديك، وأن أجعلك وصياً عليهم، فهل منزلك حصين ووقتك متسع؟.

فقال: نعم أيها القاضى.

فقال: تعال إلىَّ بعد غد، وأعد موضعاً للمال...

وأحضر معك حمالين يحملونه...

وفى اليوم التالى جاء الرجل المشتكى، فقال له إياس:

انطلق إلى صاحبك واطلب منه المال، فإن أنكره فقل له:

---

(١) الحاجب: البواب الذى يقف بأبواب الخلفاء والوزراء ونحوهم.

(٢) الزغب: صغار الريش والشعر.

(٣) النثار: ما يتناثر من الشىء إذا نثرته.

أشكوك إلى القاضى.

فأتاه الرجل فطلب منه ماله، فامتنع عن إعطائه له وجحده.

فقال له: إذن أشكوك إلى القاضى.

فلما سمع ذلك منه دفع إليه المال، وطيب خاطره.

فرجع الرجل إلى إياس وقال:

لقد أعطانى صاحبى حقى وجزاك الله خيراً.

ثم جاء الرجل المؤتمن إلى إياس فى موعده ومعه الحمالون،فزجره وأشهره[١] وقال له:

بئس الرجل أنت يا عدو الله، لقد جعلت الدين مصيدة للدنيا...

لكن إياساً على شدة ذكائه، وقوة عارضته[٢] وسرعة بديهته... ربما صادف من يقارعه الحجة بالحجة، ويقطع عليه سبل الكلام ويفحمه[٣]...

حدث عن نفسه قال:

ما غلبنى أحد قط سوى رجل واحد، وذلك أنى كنت فى مجلس القضاء "بالبصرة" فدخل علىَّ رجل، فشهد عندى أن البستان الفلانى هو ملك فلان، وحدده لى...

فأردت أن أمتحن شهادته.

فقلت له: وكم عدد شجر البستان؟

فأطرق قليلاً، ثم رفع رأسه وقال:

منذ كم يحكم سيدنا القاضى فى هذا المجلس؟

فقلت: منذ كذا سنة.

فقال: كم عدد خشب سقف هذا المجلس؟

فلم أعرف، وقلت: الحق معك...

---

(١) أشهره: فضحه. (٢) قوة عارضته: قوة تفكيره. (٣) يفحمه: يسكته بالحجة.

ثم أجزت شهادته...

ولما بلغ إياس بن معاوية السادسة والسبعين من عمره، رأى نفسه وأباه فـي المنام راكبين على فرسين، فجريا معاً... فلم يسبق أباه ولم يسبقه أبـوه، وكـان والده قد مات عن ست وسبعين سنة.

وفى ذات ليلة أوى إياس إلى فراشه وقال لأهله:

أتدرون أى ليلة هذه؟

قالوا: كلا.

قال: فى هذه الليلة استكمل أبى عمره.

فلما أصبحوا، وجدوه ميتاً.

رحم الله إياساً القاضى، فقد كان نادرة من نوادر الزمـان، وأعجوبـة مـن أعاجيب الدهر فى الفطنة والذكاء، والبحث عن الحق والوصول إليه .

* * *

وهكذا نرى أن ساحة العدالة على مر التاريخ بمجموعة من القضاة الأفذاذ الذين كان الحق رائدهم والعدالة هدفهم الأسمى، ولنذكر فى هذا الصدد لمحات قصيرة لنماذج قليلة من هؤلاء الأعلام ليكونوا مشاعل نور يهتدى بها الناس، ويستضىء بها الباحثون.